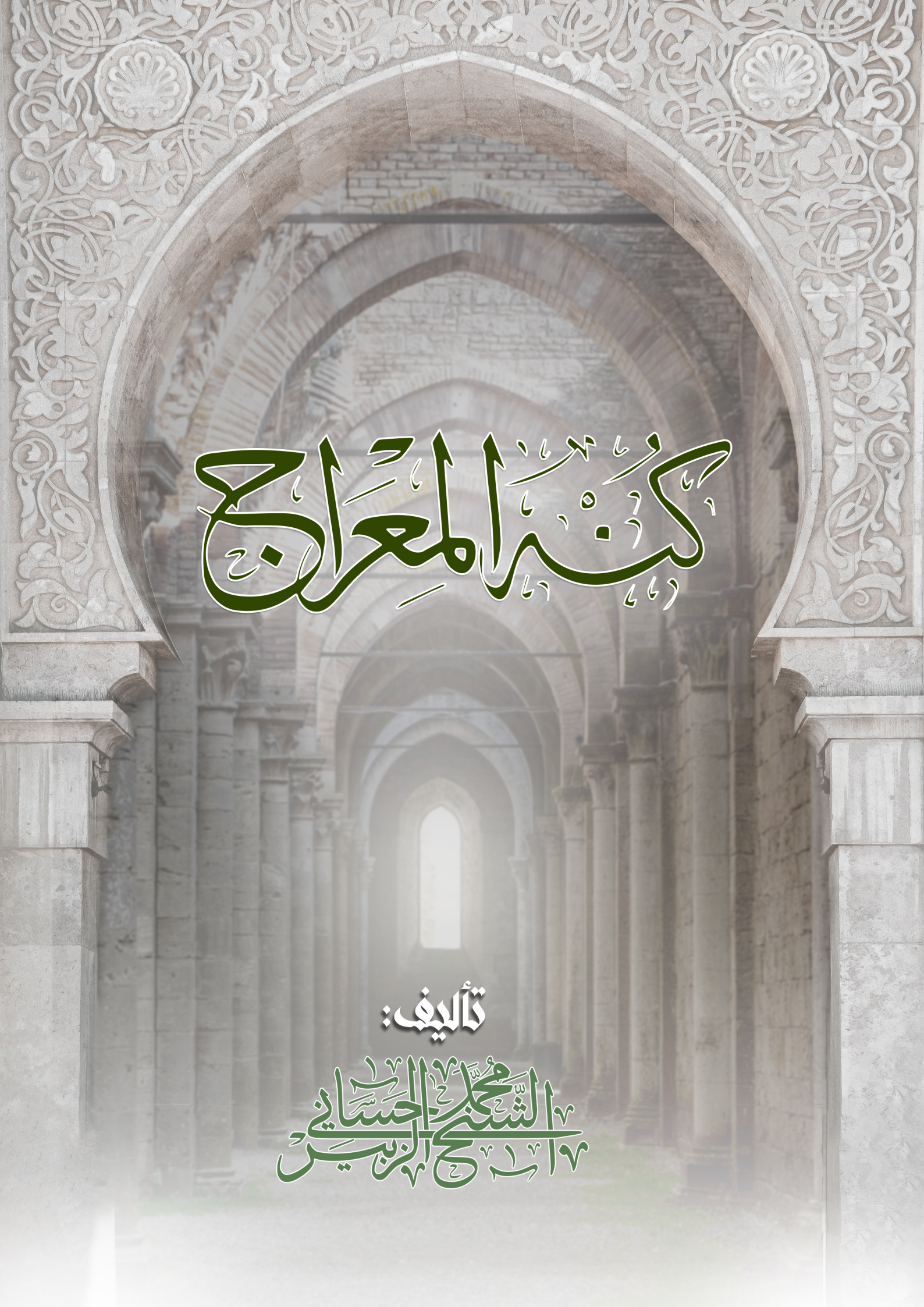

كنز المعراج

تأليف:

الشيخ محمد الحسيني الزين

كتاب

كُنهُ المِعراج

تأليف :

الشيخ محمد الحساني الزبير

حفظه الله تعالى

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

1445 هـ \ 2024 م

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير الممكنة
إلا بإذن خطي من الناشر

اسم الكتاب : كنه المعراج

اسم الكاتب : محمد الزبير حساني

الطبعة : الأولى

عدد الصفحات : 39

الترقيم الدولي : 978-9969-9745-0-8

الإيداع القانوني : 2024\02

العنوان : الرويسات , ورقلة , الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

رقم الهاتف : 21373465215+

أكاديمية المنهج المحمدي أكاديمية المنهج المحمدي

emenhajelmohammady@gmail.com

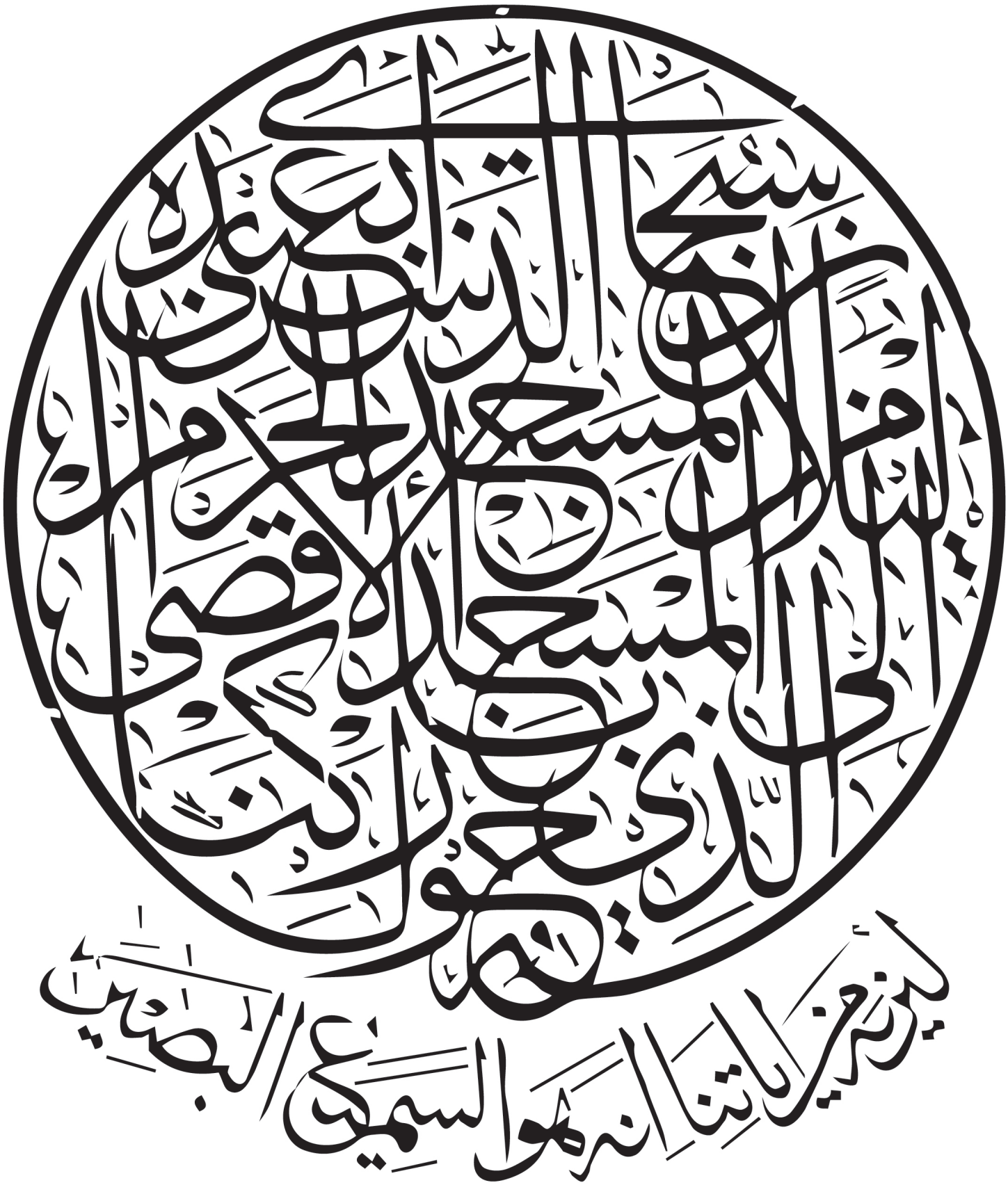
سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ورضي الله عن شيخنا الجيلاني وورثته وأتباعه إلى يوم الدين

الحمد لله رب الملك والملكوت والجبروت، من أوجدنا بمشيئة الحب وأكرمنا برسالة الحبيب، صلى الله عليه مادام يتفوق ويترقى قاب قوسين أو أدنى، صلاة تزجّ بنا في بحبوحة أنواره، لنغترف من بحور أسراره وعلى آله وصحبه وسلم أزلا أبدا..

أمّا بعد:

إن الحقيقة كلما علت كلما اختفت، وكلما اختفت كلما كثرت تأويلاتها، فما بالك إذا كانت هي حقيقة الحقائق، المهيمنة على كل الرقائق، فمنذ أن عرج الحبيب ﷺ إلى ربه ﷻ، والعارفون يعرجون في أسراره وما انتهوا، وهيهات هيهات، فإن سدرة منتهاهم هي عتبة مبتداه، فكل الذي قالوه إنما هو بالنسبة لهم، لا بالنسبة لحقيقته المطلقة المنزهة عن الحيطة والإدراك.

ولقد تعددت نظريات العارفين في العلة الغائية للإســـراء والمعراج فأردنا أن نجمل هنا الدلائل الكلية لهذه الآية الكبرى، فالتفاصـــيل لا تتناهى، حيث أنني لم أر حادثة في الحياة النبوية أكثر تشعبا منها فهي تتداخل مع كل الشؤون المحمدية.

فـهـذهِ عَـيِّـنـةٌ مخـتـصـــره ... بصـــورةٍ لـكُـنـهـهِ مُصـــغّره
لحـيـظـة قصـــيره دقـيـقـه ... لا تخلو من بطـنـاهـا رقيقه
مـا مِن كمـالٍ فيـهِ أو فضـــيلَهْ ... إلّا وتَـلـقـى هَـاهُـنـا دلـيـلـه

الإراءة

إن العلة الظاهرة لهذه المعجزة الباهرة، جاءت في قوله ﷻ: ﴿لِنُرِيَهُ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ﴾ [الإســـراء:01] فورد فعل الرؤية هنا، وورد كذلك في قوله ﷻ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم:11]، وفي قوله ﷻ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم:12]، وفي قولـه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم:13] وفي قولـه ﷻ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّـهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم:18]، وفي قوله ﷻ على سبيل الاحتجاج: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ [النجم:19].

وورد ذكر البصر مرتين في سورة الإسراء: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:01]، وفي سورة النجم: ﴿ما زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:17]، كدلالة أن هذه الرؤى كانت بالبصر وفي اليقظة، وهذا الذي يميز رؤيته ﷺ فغيره يكاشف أو يشاهد بالبصيرة، وهو قد تعدى هذا إلى مستوى رؤية البصر.

علما أن مشـــاهد هذه الليلة تنوعت وتدرجت ابتداء من الكون وما فيه من عجائب وغرائب، وانتهاء بالمكوّن ﷻ وماله من تجليات عظيمة جليلة.

وعلة هذه الإراءة الكبرى أن يكون شـــاهدا عيانا على ما يدعوا إليه من توحيد وبشـــارة ونذارة، مصـــداقا لقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرا﴾ [الأحزاب:45_46]، ويترجم هذا قوله ﷻ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدۡعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:108]، فنزداد نحن به تبصرا ﴿وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ [الصافات:179]، وليس الخبر كالمعاينة.

أَحـبّـهُ مـولاهُ فـاجـتـبـاهُ ولـيـس مَـن رَوى كـمـن رآهُ
ففي العيـانِ تظهرُ المُبـايَنَـهْ وليســـتِ الأخبارُ كـالمُعـايَنَـهْ

التلقي المباشر

ما كان الخلق ليؤمنوا به ﷺ لولا واسـطة ملك في الوحي، لقصـر العقول على العادة، ولكن بعد أن طمأنهم واستأنسوا بذلك، ضرب لنا مثلا في رحلة المعراج، على إمكانية التلقي المباشـــر للوحي من الرب ﷻ، كما تتلقى الملائكة بل أعلى من ذلك وأعظم.

وعند ذلك ازداد المؤمنون يقينا بنبوته ورسـالته، فليس الخبر كالمعاينة وليس المزج كالصرف، وليست الإعادة كالمباشر.

وكأن لسان الحال منه يقول ها قد عرجت كما تعرج الملائكة، وقد تفوقت عليهم إلى مستوى سمعت فيه تصريف الأقلام، ثم إلى مستوى الخطاب الكفاح، فهل تصدقون بعد هذا بأنني لست في حاجة إلى واسطة الملك في الوحي؟.

السيرة الكبرى

إنّ حياة سيد الوجود ﷺ ليست مقصورة على هذه الأرض، بل له ﷺ سيرة في كل طور من الأطوار الثلاثة: [جسمانيا وروحانيا ونورانيا]:

له في كلّ حضرةٍ مسيره ... وهذه آخرهنّ سيره

فسيرةُ النّورُ على الإطلاق ... تَجُوبُ في عنديّةِ الخلّاق

ما للورى مِن حظوةٍ هنالك ... فالكلّ دون مُبتداها هالك

وسيرة الرّوح بلا حدودِ ... محيطةٌ برمّةِ الوجود

لكنّها تَغِيبُ في الأغوار ... محجورةٌ على ذوي الأغيار

وسيرةُ التّجسّدِ المنيفه ... تنزلت لكنّها لطيفه

ما أبعد الأفهام عن فحواها ... وليس من روى كمن رواها

ولقد ضربت لنا حادثة المعراج مثالا على الوجود المحمدي، المحيط بهذه الحيوات الثلاثة، حيث قابل أهل الغيب من الجسمانيين، وقابل أهل الأرواح في الآفاق، ثم تفرد بالسيرة النورانية في عالمه الخاص حيث الخلوة الأحدية، المعبر عنها بـ: ﴿فَاسْتَوَى* وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ [النجم:06_07] وهو ما أشار إليه حديث: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل**».

الجنس الأعلى

مهما تنوعت أجناس الخلق، يبقى النور المحمدي الأول هو الجنس الأعلى، فلا هو جنس البشر ولا من جنس الأرواح، حتى ولو تلبس بزيهم في النزلتين، وإن حادثة المعراج خير دليل على ذلك، حيث ارتقى الحبيب ﷺ عن الجسديين من أهل الأرض، ثم ارتقى عن الروحانيين من أهل الأفق، حتى خرج عن دائرة الأكوان فتميز عن كل الأجناس، وتفرد بصبغته النورانية وجبلته القدسية، التي هي أعظم وأقدس خلقة في الوجود.

فلا جرم أن قال ﷺ: «**إني لست كهيئتكم**»، وهو يخاطب العالمين برسالته: «**إني أبيت عند ربي**»، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:09] «**يطعمني ويسقيني**» من الأنوار الذاتية والأسرار الأحدية.

لست كهيئتكم

ولقد برهنت لنا هذه الحادثة على عظم الهيئة المحمدية، حيث عرج ﷺ بجسمه البشري إلى المستوى النّوراني الذي لا يطيقه الروحانيون بشهادة رئيسهم عليه السلام: **(أنت يا رسول الله لو تقدَّمت لاخترقت وأنا لو تقدمت لاحترقت)** .

أجل عرج بنعله الشريف ولم تتغير منه ذرة، فلا جرم أن قال ﷺ: **«إني لست كهيئتكم»** جسما وروحا ونورا، هو بكله نسيج وحده ﷺ.

لا بُدّ أنّه مِن الأنوارِ ... وليس مِن جِنسيّةِ الآثار
فلم تُؤثّر سبحاتُ النّورِ ... في شَعْرِهِ وأثّرتْ بالطّورِ
في لحظةٍ عادَ كمثلِ ما ذَهَبْ ... ولم يُصَبْ بِتعَبٍ ولا وَصَبْ

تنوير الآفاق

بعد أن تشرَّفت الأرض بظهور سيد الورى ﷺ أراد الله ﷻ أن يشرف الآفاق بوطأة القدم المحمَّدي.

أجل فكان بالإمكان أن يرتقي الحبيب ﷺ دون أن يعرّج على الآفاق لأن الله ﷻ منزَّه عن المكان، فحيثما كان الحبيب ﷺ فثم حضرة تجلي الله ﷻ، ولكن علة تعريجه على الآفاق هي حلول بركته فيها.

وَزُوِّيتْ في سَريهِ البَطحاءُ ... كما انطوَتْ في عَرجِهِ السّماء
فملأَ الكونَ هُدًى ونُورا ... والأرضُ باتَت مَسجِدًا طَهُورا

عرج من حيث نزل

إن المستوى الذي تنزل منه النور المحمدي هو الذي عرج إليه، ألم تقرأ قوله ﷻ: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:15]، فالنور المحمدي نزل مع القرآن من المستوى النوراني، مصداقا لقوله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف:157]، أي أنزل مع الحقيقة المحمدية.

وكأنه أراد أن يضرب لنا مثالا حيا على ذلك، ويعرفنا من أين تنزّل وأنه ليس من هنا ولا هناك، بل هو أكبر من كل ذاك، فعرج ورجع في لحظة، كإشارة على أنه ما غادر ذلك المستوى طرفة عين وإنما هو انبساط أشعة فحسب.

لا بين بعد العين

لقد ترجمت لنا رحلة المعراج عن المقام المحمدي، فحيث كافح العين بالعين فلا وجود بعدها للبين، فحيثما توجه فهو في المواجهة، وهو المعني بالأصالة بقوله ﷻ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:115].

وهذا يعطينا درسا في النزاهة النبوية، بأن هذه الأغيار ليست بالتي تحجب المعصوم ﷺ عن عين الأنوار، بدليل أنه قطعها بمعراجه في طرفة عين، وكذلك هو الحال دائما فهو في كل طرفة عين في مواصلة العين

فلا بين ولا أين، فلا يشغله الخلق عن الحق، ولا يذهله الحق عن الخلق، لكونه ينظر بالعينين: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:17] ويطير بالجناحين: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:02].

توحيد المقامات

كانت الحضرة قبل البعثة المحمدية على الصبغة الصفاتية، فلما ظهر مجلى الذات صبغها بصبغته الذاتية، وهذا الذي أكدته حادثة المعراج، فكما جاء ناسخا للديانات كذلكم نسخ كل المقامات والرتب، فاندرج الكل تحت رايته الكبرى.

ومن هنا صلوا خلفه فانطووا في ذاته، واندمجوا في أنواره، لكيما يروا الله ﷻ به، فاستدار الزمان كهيئته يوم خلقه الله، كما بدأ بالنور المحمدي ختم به، فوضعت لبنة التمام ليلة المعراج، وتجددت نواميس الحضرة.

قد جُدّدَتْ حضائرُ المعالي	واتّسقت بهِ على الكمال
ففاضتِ الأنوارُ بالآفاقِ	وضجَّتِ الحضرةُ بالأشواق
وانجذَبَ الرُّسُلُ والأملاكُ	ونارَتِ العُروشُ والأفلاكُ

إجلاء الآية الكبرى

وكما تجلت لسيد الوجود ﷺ الآية الكبرى، فكافح الذات عيانا كذلكم تجلت منه الآية الكبرى للآفاق، حيث انعكس التجلي الأعظم، على مرآة حقيقته إلى الأكوان، لأن الله ﷻ لا يرى إلا في المظاهر، وإن أعظم مظهر يتجلى فيه الحق هو النور المحمدي .

وهذا ما أشار إليه ﷻ بقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:01] أي لنجعله هو أعظم مرئية، بقرينة قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم:18]، فلما انعكست في قابليته الآية الكبرى، كانت مظهريته هي كبرى الآيات على الإطلاق.

الشفاعة

يعتبر كل رسول شفيعا لأمته ، بيد أن سيد الوجود ﷺ شفيع للعالمين، أمما وأنبياء وأملاكا، فلما حان موعد الضيافة العظمى وقف الكل ليرسلوا ملفاتهم إلى بارئهم ﷻ، عن طريق الحبيب الوجيه ﷺ الذي لا يرد أبدا.

والحمد لله أن ملفات الأمة كانت هي المقصد الأساس، والأمم الأخرى بالتبعية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدا﴾ [البقرة:143]، فكم وكم ضمن لنا في هذه الليلة مما لا يجوز ذكره في الأوراق.

وكأني بهذا المشهد هو المعبر عنه بقوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِم﴾ [يونس:02]، وما قدم الصدق إلا القدم المحمدي الراسخ في الأفق الأعلى، قاب قوسين أو أدنى.

الدلالة

ولقد ضربت لنا حادثة المعراج مثلا على مجريات رسالته إلى الملأ الأعلى، لكونه رسولا لرب العالمين علوا وسفلا، أولا وآخرا .

أجل فالملأ الأعلى محتاجون إلى النبي الأعظم ﷺ ليرقيهم في مدارج العبودية، التي بلغ فيها الكمال في تلك الليلة ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:01] وأن يرقيهم في معارج الشهود والتحقق والعرفان، التي ظفر منها بالبحور الطامية، والمراتب السامية: ﴿فَاسْتَوَى* وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى* ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى* فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى* فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:06__10].

هذا وقد رقاهم سيد الوجود ﷺ في تلك الليلة بنظرته الذاتية وأخرجهم من قيد مشاهدهم الصفاتية، لهذا اصطف الكل خلفه للصلاة، كي يسقوا من عينية الصلات، فأجلى ما يتجلى الحق في المظهرية المحمدية.

فأَمَّ الأنبياءَ أجمعينا ... لِكونِهِمْ للأصلِ تابِعينا

فما تَخلّفَ وَراهُ أَحَدُ ... لا ريبَ فهْوَ مَحتِدٌ وأَحمَدُ

فقامتِ الأرسالُ صَفّا صفّا ... يُصافحونَ المجدَ كَفّا كفّا

المحجة البيضاء

وما أدراك أن المعراج كان لتنوير الدروب الغيبية، فبعدما جاء بالرسالة لتنوير مسالك الشريعة، جاء بالنبوة لتنوير مسالك الطريقة وجاء بالعبودية لتنوير مسالك الحقيقة، فهو البحر الخضم الذي يستقي منه الكل: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:60].

فكأنه نصب لنا طريق المعراج خلف أقدامه المكينة، لنسير خلفه بسلام آمنين: «**تركتكم على المحجَّة البيضاء ليلها** _ غيبها _ **كنهارها** _شهادتها_».

فلا تعجب بعدئذ من معارج الأولياء فهي فرع عن المعراج المحمدي الكبير، وليست تعدي على حدود الخصوصية النبوية، ولكنهم يعرجون بقدر ما أنار لهم من دروب في الغيوب، وعلى قدر التنوير يكون التعمير، أو على قدر النور يكون العبور، أو على قدر النور يكون الحضور.

وفُتحَ البابُ للأنبياءِ ... وقُشّعَتْ حُجُبُ الأولياءِ

ليسلكوا النّهجَ على آثارِهْ ... فيَقبسُوا الشّهودَ مِن أنواره

لكنّها معارجٌ مِن دونِ زَجْ ... فالكلُّ واقفٌ وأحمدُ وَلَجْ

تاج الخلافة

وكأني بهذه الحادثة العظيمة تشير إلى مراسم الخلافة المحمدية، لما فيها من مظاهر التكريم والتعظيم للجناب المقدس.

فلقد استقبله سادة الوجود بالولاء، وألقوا زمام السيادة والريادة في أعتابه فهو الأحق بها وأهلها منذ العهد الأول.

أما استواءه بالأفق الأعلى فيعتبر كالجلوس على عرش السلطة وفي ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم:09] استلام الأمور، وفي ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ مخدعه الخاص الذي يرتاح فيه من أعباء الخلافة: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:07_08].

فبعدما استلم مفاتيح خزائن الأرض: «أُوتِيتُ مَفَاتِيح خَزَائِنِ الأَرْضِ»، قد عرج سيد الورى ﷺ ليستلم مقاليد السموات والآفاق وهو ما عبر عنه القرآن بـ: ﴿فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ﴾ [النجم:06_07] أي: استوى على عرش السيادة.

فما من صعود ولا نزول بعدئذ إلا بواسطته: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن:33]، وهو ﷺ السلطان الأعظم، وخليفة الله ﷻ الأكبر على الوجود.

التمكين

يتفاوت الكمل في التمكين بالحضـــرة، وكل على قدر شـــهوده ووجوده، فأثبتهم وجودا عند الشـهود هو الأمكن في الحضـرة، وما هو إلا الذي رسـخ بجسـمه الشـريف في مسـتوى الأفق الأعلى، وما ضـل وما غوى، وما زاغ بصـرا وما طغى، مع عظمة التجلي الذاتي، فضـلا عن تيارات الجبروت، وفيضانات الملكوت.

أجل إنه مقام الصـحو والبقاء، فلا فناء ولا جذب ولا اصـطلام فالجبل الموسـوي اندك في الوادي، والجبل المحمدي رسـخ في المسـتوى الأعلى.

شاهد عيان

كانت البرايا قبل الظهور المحمدي تعبد الله غيبا، وتؤمن به وحيا وخبرا، فلما جاء ســـيد الورى ﷺ برهن لهم على وجود الله ﷻ عيانا وليس الخبر كالمعاينة، فلا أين بعد العين، فلا ريب في الغيب: ﴿**الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**﴾ [الفرقان:59]، وكفى بمجلى الذات به خبيرا.

فالشـاهد الوحيد على وجود الله ﷻ عيانا هو الحبيب الأعظم ﷺ وأما غيره فيؤمنون به غيبا، ومن هنا كان ظهوره كالمس لهذا العالم بعد ما كان الخلق في ليل طويل: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [النحل:16] فجاء النور المبين: ﴿**وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا**﴾ [الأحزاب:46].

الوسيلة

إن حلول الحبيب الأعظم ﷺ في مستوى الرفيق الأعلى، قاب قوسين أو أدنى، في معية ربه وحيدا وفريدا، يشير إلى مقام الوسيلة الذي قال عنه الحديث الشريف : «سَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلةَ، قالوا: وما الوَسيلةُ؟ قال: هيَ أعلى درجةٍ في الجنّةِ، لا يَنالُها إلّا رَجُلٌ واحِدٌ، وأرْجُو أنْ أكونَ أنا هُوَ».

فهو مثال على حال المآل، فسيكون الحبيب ﷺ في حضرة فوق الجنان متفردا في عندية ربه ﷻ، ولسان حال الكل يقول: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:164]، فلا يجوز رؤية الله ﷻ إلا له، أو لمن توسل به، فتفتح له نافذة من حضرته السامية، ومن خلال مجالها يتجلى لنا المولى ﷻ فمن هنا سمي ذاك المقام بالوسيلة.

تجديد البيعة

إنّ الميثاق المحمدي على الأرواح كان قديما، وبالأخص على أهل النبوة، لكونهم خلفاؤه على الأمم، ولقد عبر عنه الكتاب الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:81].

وها قد أتى فلا بد عليهم أن يفوا بعهدهم ووعدهم، فلهذا اجتمعوا كلهم وبايعوه في بيت المقدس، ووافوا له بالتبعية والطاعة، ثم قابله كبراؤهم بصفة خاصة في الأفق، وهكذا الأملاك والأرواح الكاملة.

دانَتْ لهُ الأملاكُ بالسّيادَه وعَقَدُوا عليهِ بالشّهاده

فكانوا مِن أُمّتِهِ جميعا وكلّهم لشرعِهِ مُطيعا

وجدَّدُوا البيعةَ للأشباحِ بعدَ انطواءِ نوبَةِ الأرواح

عينة من الصلة العينية

كان الحبيب ﷺ وحده خاليا بربه ﷻ، منذ أن خلق نوره وتجلى له مولاه وأولاه، وهو الآن على ما عليه كان، من فوق كل الاعتبارات والحيثيات، فلما تنزل هنا ليدلنا على الله ﷻ، انبسط في صورة التقييد، ولكن الحقيقة من وراء الصور، فليست هذه الأغيار بالتي ستحجب نور الأنوار، ولكنه أراد أن يعرفنا على ما هو عليه من صلة عينية مع الحضرة الذاتية، فقام لنا بهذه الأعجوبة، وتركها لنا كصورة مصغرة لتلك المشاهد العظيمة، التي كانت ولا زالت قائمة قبل الإسراء وبعده.

ما بين الشهود و الوجود

يعتبر معراج الوجود انعكاسا لمعراج الشهود، فالمخالج ظهر في الخارج ، وبقدر الولوج يكون العروج، مصداقا لقوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53] .

ولما كان القدم المحمدي هو الغاية في الشهود، فقد بلغ المنتهى في مستوى الوجود، فقامت المعادلة الغائية بين منتهى الوجود: ﴿فَاسْتَوَى* وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ [النجم:06_07]، وبين منتهى الشهود: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:09] .

الحضور بقدر النور

يقول سيدي ابن عطاء الله رضي الله عنه: "**حيثما حصل التنوير وصل التعبير**" هذا في فتح الأولياء، فما بالك بفتح سيد الأنبياء ﷺ.

نعم إن الصلة بالله ﷻ على ضربين، فطريق حسي وآخر معنوي وكلاهما يقطع بالنور، فالحجب الظلمانية تكشف بالنور، والحجب النورانية تكافح بالنور، وإذا كان الحبيب ﷺ هو نور الأنوار، فإن صلته ستكون أعظم، لأنه بقدر النور يكون الحضور، فمن كان نوره أعظم سيكون حضوره أتم، فمن هنا كان التجلي الأكبر في المستوى الأعلى .

وإذا كان النور لا يرى إلا بالنور، فإن سيدنا ﷺ متحقق بالنورانية بكل شـؤونه، فقد خلق من نور، وجاء بالنور، وعاش في النور، ثم زج به في النور، وتأمل إلى هذه الإشـارة اللطيفة في هذا الحديث: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَـانِي نُورًا، وَفِي بَصَـرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَـارِي نُورًا، وَمن فَوْقِي نُورًا، وَمن تَحْتِي نُورًا، وَمِن أَمَامِي نُورًا، وَمن خَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا، وأَعْظِمْ لِي نُورًا**».

الواسطة العظمى

مما يتفق عليه الخاصة أن الحبيب ﷺ هو الواسطة بين الحق والخلق في كل ما يصـعد أو ينزل، وذلك لضـعف قوابل الخلق عن التلقي المباشر من الرب ﷻ.

وكان مشـهد المعراج مثالا عمليا على ذلك، حيث أنه عرج من عالم الخلق إلى حضرة الحق شفيعا لهم، ثم رجع لهم بالضمانة، ولسان حال الحضـرة يقول: هذا الذي يباشـر جلالة الرب وفيه سـعة الرحمة للعالمين، لهو الخليق بالوساطة والوسيلة العظمى.

الحجاب الأعظم

وكما هو الحال في الوساطة، كذلكم حال البرزخية، فدلت حادثة الزج على أن النور المحمدي هو الحقيق بأن يكون حجابا لنا دون مكافحة التجليات في كل أطوارها، ابتداء من حضرة الأفعال، وانتهاء بحضرة الذات: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾ [النجم:42].

ومن هنا قال سيدي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه: "**اللَّهُمَّ إِنَّهُ سِرُّكَ الْجَامِعُ الدَّالُ عَلَيْكَ، وَحِجَابُكَ الأَعْظَمُ الْقَائِمُ لَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ**".

وقال رضي الله عنه أيضا : "**وَاجْعَلِ الْحِجَابَ الأَعْظَمَ حَيَاةَ رُوحِي، وَرُوحِهِ سِرَّ حَقِيقَتِي، وَحَقِيقَتِهِ جَامِعَ عَوَالِمِي**"، لأنه يدرك أن الذات لا ترى في غير مظهر، وأعظم مظاهرها وأشفُّها للرؤية هو النّور المحمَّدي، لهذا جعله الله لنا في الجنة هو الوسيلة الوحيدة للتّجلي الأكبر.

الإطلاق

إن تحرر سيد البرية ﷺ في معراجه عن القيود والحدود، يدل على إطلاقه في الوجود والشهود والمدود.

ألم ترَ أنه لم يتحدد بسماء كغيره من الأنبياء، ولا بالتبعية لغيره ولا قيد بزمان ولا مكان، بل تفوق عن كل الرتب، وتجرد عن كل النسب، فكان على معنى الإطلاق في كل شؤونه .

التجلي بقدر التخلي

إذا كان التجلي بقدر التخلي، فما هناك تخلي ولا خلوة في الوجود أصدق وأقدس من خلوة العماء، فلا جرم أن أثمرت التجلي الأعظم ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:09].

وهكذا هو الحال فيه ﷺ منذ عهد الخلوة النورانية، مرورا بخلوة أو أدنى، إلى خلوة الرفيق الأعلى، إلى خلوة الوسيلة.

البقاء بقدر الفناء

إن المقام المحمدي لا يقاس على ميزان السلوك عندنا، اللهم إلا من جهة التمثيل والدلالة، فهم يقولون أنه بقدر الفناء عن نفسك وحسك وجنسك، ستطلع على حضرة قدسك.

ولقد حقق المعراج أعلى مستويات الفناء، ثم جاء الزج بالفناء عن الفناء، ثم جاء الكفاح بالبقاء بعد الفناء، فلا يجوز رؤية وجه الباقي إلا على قدم البقاء والصحو والتمكين.

وهنا حقيقة مهمة تنبه إليها الحافظ ابن حبّان رضي الله عنه حيث يقول في صحيحه: خبر السيدة عائشة أنه لا تدركه الأبصار فإنما معناه: لا تدركه الأبصار في الدنيا وفي الآخرة، إلا من يتفضل عليه من عباده بأن يجعله أهلا لذلك، واسم الدنيا قد يقع على الأرضين والسماوات

وما بينهما، لأن هذه الأشياء بدايات خلقها الله ﷻ لتكتسب فيها الطاعات للآخرة، التي بعد هذه البداية، فالنبي ﷺ رأى ربه في الموضع الذي لا يطلق عليه اسم الدنيا، لأنه كان منه أدنى من قاب قوسين حتى يكون خبر أمنا عائشة أنه لم يره ﷺ في الدنيا من غير أن يكون بين الخبرين تضاد أو تهاتر.

السلوك والفتح

إذا نظرنا إلى الإسراء والمعراج والزج، سنجدها تشير إلى السلوك والفتح، وهذا وإن كان قديما قدم نبوته وصلته العينية، ولكن هو هنا بلسان الرسالة والدلالة .

فالمعراج كالسلوك، والزج كالفتح، ومن خلال هذه الحادثة سنهتدي إلى أسرار جمة في معرفة المقامات المحمدية.

التفوق في كل شيء

فما استوى سيد الوجود ﷺ بالأفق الأعلى، إلا ليبرهن لنا على سيادته على كل الخلائق في كل الحقائق، لأن لكل مخلوق رقيقة تمده من حقيقته، وإن النور المحمدي هو حقيقة الحقائق .

فدل لفظ الاستواء على الهيمنة كما في قوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:05]، ودل لفظ الأفق على التفوق المعنوي في كل شيء، ودل لفظ الأعلى عن التعالي على سائر الرتب والمقامات.

فكفى بحادثة الإســـراء والمعراج دلالة على أفضـــليته المطلقة على العالمين، ســـواء من حيث الجنس فهو أقدســـهم ذاتا وصـــفاتا، أو من حيث الرتب فهو ســـيد الأنبياء والأملاك، أو من حيث المقامات فهو الذاتي وغيره الصفاتيون.

الضّيافة العظمى

ومن وراء هذا وذاك، فإن عرس الإسراء والمعراج يعتبر مضيفة ربانية للحبيب الأعظم ﷺ، وأقدس بعرس الحبيب ﷺ ضـــيفه، ورب العزة والجلال هو المضيف، فكيف سيكون ؟!

وهذا ما يناســـب ذلك الظرف المأســـاوي الذي كان يعيشـــه المعصوم ﷺ فأذن الله ﷻ بهذه الضيافة العظمى، فابتهج به الملكوت والجبروت، وضـــيفه ربه بأعظم وأكرم وأقدس مائدة على الإطلاق وهي مائدة التجليات الذاتية، وأما ما دونها من الموائد النورانية فحدث ولا حرج، وكفاك أن الجنة بكلها كانت له قرى في طريق المعراج.

ومائدة هذه الضيافة العظمى هي ما أشار إليها الحديث الشريف: «إِنِّي أَظَلّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْـقِينِي»، فيســقى من أنواره، ويطعم من أسراره، وهذه الضيافة دائمة غير محصورة في رحلة المعراج بدليل قوله: «إِنِّي أَظَلّ عند ربّي».

نواميس الكون

من المعلوم أن هذا الكون يقوم ما بين شـهادة وغيب، وحكمة وقدرة وآثار وأنوار، وصـورة وحقيقة، وهذه الدنيا تمثل جانب الشـهادة والحكمة والآثار والصورة..، والآخرة تمثل الجانب الآخر..

وإن هذه الحادثة الخارقة قد جرت في نطاق الآخرة، في برزخ ما بين العالمين، فهو معنا هنا في عالمنا الدنيوي، وخرج إلى عالم البقاء ثم عاد فكانت الحادثة معجزة لعالم الأسـباب، لهذا فهي لا تقاس بقوانين هذا العالم.

ولك أن تتدبر أين ذهب الحبيب ﷺ عندما جاءته أم لهب تريد أن تضـربه بحجرة وهو جالس مع الصـديق فلم تره؟ وأين ذهب الحبيب ﷺ عندما خرج من بيته مهاجرا، والبيت محاصـر بسـبعين شـابا ما رآه أحد منهم؟

أجل فمن كان يحيا في العالم الكبير، عالم الحقيقة والقدرة والغيب .. لا يتقيد بأسباب وأنماط هذا العالم الدنيوي الضيق .

عربون الحب

لقد تنوعت مشاهد المعراج ولكن السمة الغالبة عليها هي الجمال الجمال الذي يجلي لنا مدى الحب المتبادل بين الحبيب والمحبوب الحب الذي ابتدأ منذ الأزل ولن يختتم إلى الأبد، وإنما حادثة المعراج هي لقطة عابرة من تلك المشاهد السرمدية.

وكفى بخلوة ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:09] دلالة على المحبة والدلال، وأقدس بما وراء ذلك من تجليات الجمال الذاتي، الذي ما اصطف أهل الغيب وقوفا إلا ليستنشقوا نسمة من نفحاته.

فها هنا قام البرهان لذوي العرفان والوجدان على أن سيدنا ومولانا رسول الله هو الحبيب الأعظم ﷺ لرب العزة أزلا وأبدا.

العيان بعد التعيّن

إن لله ﷻ تجليات ومظاهر، فليس تجليه في الغيب كالشهادة، وليس ظهوره فيك كظهوره في غيرك، ومن هنا يعتبر للشهود الحسي مكانة زائدة على الشهود المعنوي المجرد.

لئن أصبحت مرتحلا بشخصي فقلبي عندكم أبدا مقيمُ
ولكن للعيانِ لطيفُ معنى لذا سأل المعاينةَ الكليمُ

وعليه فإن لرؤية الحبيب ﷺ العيانية للآيات ميزة خاصة، تسمو على المكاشفة الروحية التي عند الكمل، وأما الآية الكبرى هي في الرؤية الحسية للذات الإلهية، فهذا الذي تسجد له المدارك عجزا وحيرة.

الاحتجاج على الأملاك

لما خلق الله سيدنا آدم عليه السلام احتج الملائكة وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30].

ولكن لما جاء الإنسان الكامل ﷺ الذي هو العلة الغائية للخلق الآدمي ((ولولا محمد لما خلقتك))، تمت به الحجة الحقيقية على الأملاك، وهو سر: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30].

فلقد كانوا يعرفون النور المحمدي، ولكن ما كانوا يعلمون أنه سيتجسد في هيئة بشرية، فلما جاء بشرا سويا، عرج إليهم ولقنهم الحجة العظمى.

لَك ذاتُ العُلومِ مِن عالِمِ الغيـ ـبِ ومنها لآدَمَ الأسماءُ

فأرادوا أن يسجدوا له كما سجدوا لأبيه من قبل، فنهاهم ﷺ أدبا مع ربه سبحانه وتعالى، فصلوا خلفه وجعلوه إماما، فشكر الله سبحانه وتعالى له هذا الأدب في قوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:01]، وشهد له بكمال العبودية .

العلّة الغائيّة

يتضح لنا من وراء مجريات المعراج أن الحبيب ﷺ هو سر الوجود ولبنة التمام، وقطب الرحى، وخلاصة الإرادة، وإنسان عين الأعيان الذي لولاه ما انبسط الظل من الآزال:

فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتَهَا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمُ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ

وكفى بتلك الجذبة وذاك الاجتباء والدلال، دلالة على أنه هو المقصود الأعظم لله ﷻ من ،هـ، حيث جلاه لهم في ذلك المنظر البهيج، وهو يمر عليهم في موكبه المهيب، بلا توقف ولا التفات، حتى غاب عنهم وراء حجب الغيرة، فخلا بربه حيث لا يدرون ولا يدركون.

الاستواء

ويعتبر الاستواء علة غائية للمعراج، حيث أنه يحقق عدة معان سامية أعلاها قابلية التجلي الأعظم، وأدناها الهيمنة على الخلائق فلما كان الحق لا يرى إلا في حضرة النور، عرج الحبيب ﷺ حتى استوى بالأفق الأعلى أي استوى بكمال هيئته النورانية، وهذا هو المعبر عنه: «**ثمّ زجّ بي في النّور زجّا**» أي زج بجسدي الشريف في نوري اللطيف، فاستويت في حضرة البقاء لكيلا يعتريني فناء، فواجهت النور بالنور، وحصل السر والسرور، وهذا التجلي لا يكون إلا في حالة الاستواء، والاستواء لا يكون إلا في الأفق الأعلى، والأفق الأعلى لا يكون إلا بالعروج عن الأكوان السفلى.

ارتقاء الحقائق

لم يكن المعراج درجة درجة إلا ليشير لنا إلى معنى ارتقاء الحقائق فيه وهو الذي عبر عنه سيدي ابن مشيش نفع الله به: "**وفيهِ ارتقتِ الحقائق**".

فلكل مخلوق ولكل منزل حقيقة يقابل بها الحضرة، وسيد الوجود ﷺ هو حقيقة الحقائق الممدة لكل الرقائق في الخلائق، ففي عروجه ﷺ عن مستوى كلّ الحقائق، دلالة على أنه هيمن على الكل وفي تنزله بعد ذلك إشارة لسقي الكل، فبقدر ارتقاءه في الحقائق بقدر تنزله للخلائق، كما ورد: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:08].

وجاء في المشيشية: "**وفيهِ ارتقتِ الحقائقُ، وتنزلتْ علومُ آدمَ عليه السلام فأعجزَ الخلائق**" فافهم .

فكل من قوبل بالتماس فإنّه فاز بالاقتباس

فكما أنه في مروره على حقائق الخلائق، هيمن عليها حتى استوى على حقيقة الحقائق، كذلكم في نزوله سقاها وأمد كل حقيقة برقيقة من نوره ليتمم النعمة، والرحمة على الوجود: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف:08] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107].

مشهد الفرقان

تقتضـــي رتبة الكمال المحمدي الجمع ما بين مشـــهدي (الجمع والفرق) فبعدما كان في مســـتوى الجمع الصـــرف قبل الظهور إلى الخلق، تنزل ليشـــهد الحق متجليا في صـــفاته وأفعاله وآثاره، بشـــاهد: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء:01].

فمن هنا يعتبر هذا المعراج بكله مشهد الجمع في الفرق، ومع كونه ما انفك عن مشـهد جمع الجمع في خلوته الأحدية، فالجمع ما بينهما هو الأكمل له ﷺ بدليل: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولَى﴾ [الضـــحى:04] أي المشهد الأخير دائما أفضل من المشهد السابق لأنه دائم الترقي.

فلا زال يشهد الحق في تفاصيل تجلياته الصفاتية، حتى جمع التجليات في مظهريته الذاتية، تحققا وهيمنة فقال عنه: ﴿فَاسْـــتَوَى* وَهُوَ بِالأفُقِ الأعْلَى﴾ [النجم:06_07]، ومنها رأى الله ﷻ في أعظم مظهرية حقيقته الجامعة المعبر عنها بـ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم:18].

المعراج النفسي

يشير قوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53] إلى أنه بقدر ما تتجلى لك الآيات في الآفاق ستنعكس على نفسك كمالا.

ولهذا لما بلغ سيد الوجود ﷺ الغاية في معراج الآفاق، بلغ الكمال في نفسه، فقال ﷻ: ﴿فَاسْتَوَى﴾ [النجم:06] أي: كمالا في نفسه ﴿وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ [النجم:07] أي: بعد أن جمع مشاهد الآفاق وبلغ إلى الأفق الأعلى.

التجلي بقدر التخلي

قديما قالوا الاستقامة خير من ألف كرامة، فكيف إذا كانت هذه الاستقامة هي مسيرة الإسراء والمعراج التي إحداثياتها:

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إلى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى عبورا بالمسجد النبوي، ثم إلى السموات قبلة الدعاء، إلى حرم ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾ [النجم:09] في معية الرب ﷻ.

وشعاره في هذه المسيرة: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:02] ودثاره: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:17]، فلابد أن تكون النهاية: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم:18]، فبقدر ما تخلى عن السوى

بلغ أشـده واسـتوى: ﴿فَاسْـتَوَى* وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى* ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم:06__08]، أجل فبقدر التحلي بأوصـــاف العبودية يكون التجلي من حضـــرة الربوبية، فلما بلغ الغاية في العبودية: ﴿أَسْـــرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسـراء:01]، ظهر بالتجلي الأعظم من الحضـــرة الذاتية: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:10].

بين الكلام والخلة والمحبة

وضـــربت لنا هذه الحادثة المثل على التفاوت في المراتب الكبرى وهي مقام الكلام لسـيدنا موسـى عليه السلام، والخلة لسـيدنا إبراهيم عليه السلام والمحبة لسـيد الوجود ﷺ، فالإسـراء فيه الاسـتواء على المقام الموسـوي الذي تجلى له المولى في الأرض: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:12].

والمعراج فيه الاستواء على المقام الإبراهيمي، الذي تجلى له المولى سبحانه وتعالى في الآفاق: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام:75] فكانت حضـرته عند البيت المعمور، والزج فيه الاسـتواء على المقامين الماضـــيين: ﴿فَاسْـــتَوَى* وَهُوَ بِالأفُقِ الأعْلَى﴾ [النجم:06_07]، ثم تفرد بالتجلي الذاتي من حيث لا حيث، ووراء وراء: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:08_09].

وهذا معنى قول سيدنا ابن عباس رضي الله عنه: **(إنّ الله عزّ وجلّ اصطفى إبراهيم بالخلّة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمدا ﷺ بالرؤية)** [1].

فكان المقام المحمدي جامعا لكل المراتب كما جمعت الرؤية الخلة والكلام، لكون الرؤية قامت على مقتضـــى المحبة والتي هي أعظم المقامات على الإطلاق.

الإعجاز

إن الإعجاز هو الســـمة الغالبة على هذه الحادثة، ولكن بمقاييس واعتبارات مختلفة فهي معجزة قاطبة بكل أطوارهم.

فكما أعجز الحاضرين، قد أعجز السابقين واللاحقين، وكما أعجز أهل الملك، أعجز أهل الملكوت وأهل الجبروت .

وكما أعجز بإسراءه، فقد أعجز بمعراجه، وأعجز بزجه.

وكما أعجز الكفار، فقد أعجز المؤمنين، وأعجز النبيين والمرسلين .

وكما أعجز البشر، فقد أعجز الجن، وأعجز الأملاك العلويين .

وكمـا أعجز العقلانيين، فقـد أعجز الجمـادات، وأعجز الأجرام النورانية.

---

[1] ابن أبي عاصم في السنة، وقال: "إسناده صحيح على شرط البخاري" والنسائي في الكبرى، وابن خزيمة في التوحيد، والآجري في الشريعة، والدارقطني في الرؤية، وابن منده في الإيمان، والحاكم في المستدرك، وصححه ووافقه الذهبي .

وخلاصـــة القول أنه الآية العالمية المعجزة لكل خصـــائص الوجود والقاهرة لكل النواميس الكونية، ولا غرو فإن الذي أتى بها هو في ذاته الآية الكبرى.

الهجرة

جاءت رحلة المعراج قبل رحلة الهجرة بقليل، وذلك لما بينهما من تناسب وتوافق في المقاصد، وكلاهما كان في يوم الاثنين.

وكما كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإســـلام، كان المعراج من الأغيار إلى حضرة الأنوار .

وكما كانت الهجرة ناســـخة للعهدة الابراهيمية بالعهدة المحمدية، كان العروج ناسخا للمقامات النبوية بالمقام المحمدي الجامع الخاتم.

وكما خوطب في الهجرة بالمعية: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:40] خوطب بها في المعراج: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:01].

وكما استبشر أهل المدينة بقدومه، وأنشدوا :

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا مِنَ ثَنِيَّاتِ الوَدَاع

استبشر أهل السموات بطلعته البهية، ولسان حالهم ينشد:

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إلى حَرَمٍ كَمَا سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

وكما كان الرفيق في الهجرة هو الخليل الأرضي سيدنا الصّديق رضي الله عنه كان الرفيق في المعراج هو الخليل السماوي سيدنا جبريل عليه السلام.

خلع النعلين

وإن في عروج الحبيب ﷺ إلى الأفق الأعلى دلالة على زهده في المستويين الدونيين، تخلقا بخلع النعلين، ولكنه خلع الكونين، وأعرض عن الطورين، وتفرغ من العالمين، ليتحقق بمشهد العين ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:09] بلا بين.

فلا جرم أن مدح من الأزل بـ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:17] لأنّه بقدر التخلي يكون التحلي، وبقدر التخلق يكون التحقق، ولقد قال الإمام الجيلاني نفع الله به: "**سألت الرب ﷻ عن المعراج؟ فقال لي: هو العروج عن كل شيء سوائي؛ وكمال المعراج** : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾".

ولهذا لما تأدب الأديب الأكبر بخلع الكونين أمر بوطء البساط بالنعلين الشريفين، كدلالة على أنه لما تطهر من كل ما سوى الله ﷻ صار بكله نورا، حتى النعلين الذين في قدمه الشريف .

ولله درّ سيدي النبهاني إذ يقول:

على رأس هذا الكون نعل محمد علت فجميع الخلق تحت ظلاله

لدى الطور موسى نودي اخلع وأحمد على القرب لم يؤمر بخلع نعاله

الإعجاز العلمي

من المعلوم عند الفلكيين والفيزيائيين، أن للأرض قوانينها، وللسماء قوانينها، بل حتى للجنة والنار وما ورائهما قوانينهم، وهو ما يسميه القرآن الكريم بالأسباب، كما قال عن سيدنا ذي القرنين عليه السلام: ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:85]، وقال في سورة الجن: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ [الرحمن:33].

ونجد أن حادثة الإسراء والمعراج، قد خرقت هذه الأقطار الأرضية والسماوية والعرشية، حينما نفذ سيد الوجود ﷺ من قبة الإمكان كله.

ولا غرو فإن لكل عالم أسباب وإن النور المحمدي هو سبب الأسباب، المحيط بدوائر الإمكان قاطبة، فهو خارج عنها، ولا يتقيد بأقطارها ولا بقوانينها.

ولما علم الله سبحانه بأن البشرية ستتقدم في العلوم، أعجزهم بهذه الحادثة الخارقة لقوانين الحكمة، لكونها من بحر القدرة والإرادة.

بل لعل كل هذا المستوى من التقدم في سائر المجالات التقنية، إنما هو من بركات وأسرار الإسراء والمعراج.

العين بالعين

إن هذه الآية الخارقة (**الإسراء والمعراج والزّج**) كل طور منها يقتضي قطع ملايير المقامات والدرجات، ولقد حصلت مجملة للحبيب ﷺ في ليلة واحدة، بل في طرفة عين ارتقى إلى رؤية العين، وفي هذا عدة دلائل:

منها أن هذا الذي جرى ما هو إلا عينة مما يجري دائما، ومظهر من فتوحاته الحقيقية، التي حدث فيها قطع تلك المقامات سابقا .

وفيها دلالة على أن هذا الحبيب ﷺ هو المراد الأول للرب ﷻ ولهذا اختصرت له المقامات والحضرات في لحظة واحدة، وأما سواه فلن يقطعها في آلاف القرون .

ويتجلى لنا منها ما مدى رسوخ القدم المحمدي في الحضرة، بحيث أنه لا يشـــغله خلق عن حق ولا يذهله حق عن خلق، ففي لحظة واحدة، كان مع الخلق ثم عرج إلى الحق ثم عاد إلى الخلق، ومن دون أي تأثر يظهر عليه.

وفيها دلالة على أنه ما انفك عن الزج في حضرة الذات، وإن كان مع الخلق في الظاهر، فإن كان عروجه يكون في طرفة عين، فهو كائن بائن عن الخلق، ففي اللحظة التي يرونه فيها يتدنى ثم يتدلى ولا يفتقدونه من بينهم، وهذا هو مدلول حديث: «**إنّي أظلّ عند ربّي يطعمني ويسقيني**»، وهو المشار إليه بآية : ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [الطور:48].

التطور الروحاني

إن الأرواح تتطور بقدر سقيها من الأنوار، فتكبر وتتعاظم في الجرم والقدر، فحيثما وصل التنوير يصل التطوير، وهي تستمد تلك النورانية من تجليات الأسماء الإلهية.

واذا نظرنا إلى الروح المحمدي فسنجده أعظم الأرواح وأكبرها على الإطلاق، لكونه يستمد لا من حضرة الصفات فحسب بل ويتقوت من تجليات الذات، فمن هنا وسع العالمين بروحه الأعظم، فقطع دائرة الأكوان من الفرش إلى العرش، كدلالة على وسعها بنورانيته، وهيمنته عليها بروحانيته، حتى استوى بالأفق الأعلى.

فيفهم من قوله ﷻ: ﴿فَاسْتَوَى* وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ [النجم:06_07] أنه استوى على الكون كله، فوصل إلى المستوى الأعلى من حيث الهيمنة والعظمة والإطلاق.

الزج

والعلة الغائية من وراء كل تلك المسيرة هي الزج، فلو قيل لك لماذا أسري به وعرج فقل ليزج في النور، فيتجلى له نور الذات عيانا.

أما باقي العلل إنما هي فرع عن هذا "وكل الصيد في جوف الفرا" والغاية القصوى للحبيب ﷺ في كل شؤونه هي رضوان الله ومعيته ورؤيته، فحاشاه أن تكون له في غير مولاه نية أو غاية.

وهذا سيدي ابن عطاء الله السكندري قدس سره يقول: "**ارْحَلْ مِنْ الأَكْوان إلى المُكَوِّنِ**" فما بالك إذن بسيد الحضرة ﷺ، كيف تكون رحلته؟! أجل فقد رحل من المكوَّن إلى الله المكوِّن، فبدايته من الله ونهايته إلى الله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:01]، فهو الذي أسرى به لكونه معه وعنده في حله وترحاله.

خاتمة

هذا وإن أسرار الإسراء والمعراج لا تتناهى، ولكن هذه أمهاتها التي عليها المدار في التحقيق والتأويل، والحديث ذو شجون، والله ورسوله ﷺ أعلم بالمراد.

وصلى الله على سيدنا محمد من برق به البراق، ورفرف به الرفرف وتجبرل به جبريل، وتسامت به السموات، واستوى به الأفق الأعلى وتعرش به العرش، وغشى السدرة من نوره ما يغشى، وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس

المقدمة 02
1) الإراءة 03
2) التلقي المباشر 04
3) السيرة الكبرى 05
4) الجنس الأعلى 06
5) لست كهيئتكم 07
6) تنوير الآفاق 07
7) عرج من حيث نزل 08
8) لا بين بعد العين 08
9) توحيد المقامات 09
10) إجلاء الآية الكبرى 10
11) الشفاعة 10
12) الدلالة 11
13) المحجة البيضاء 12
14) تاج الخلافة 13
15) التمكين 14
16) شاهد عيان 14
17) الوسيلة 15
18) تجديد البيعة 15
19) عينة من الصلة العينية 16
20) ما بين الشهود والوجود 17
21) الحضور بقدر النور 17
22) الواسطة العظمى 18
23) الحجاب الأعظم 19
24) الإطلاق 19
25) التجلي بقدر التخلي 20
26) البقاء بقدر الفناء 20
27) السلوك والفتح 21
28) التفوق في كل شيء 21
29) الضيافة العظمى 22
30) نواميس الكون 23
31) عربون الحب 24
32) العيان بعد التعين 24
33) الإحتجاج على الأملاك 25
34) الغلة الغائية 26
35) الاستواء 26
36) ارتقاء الحقائق 27
37) مشهد الفرقان 28
38) المعراج النفسي 29
39) التجلي بقدر التخلي 29
40) بين الكلام والخلة والمحبة 30
41) الإعجاز 31
42) الهجرة 32
43) خلع النعلين 33
44) الإعجاز العلمي 34
45) العين بالعين 35
46) التطور الروحاني 36
47) الزج 37
الخاتمة 38
الفهرس 39

المنهج المحمدي

ISBN:978-9969-9745-2-2
9 789969 974522